

الندوة الوطنية حول :

العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية والاجتماعية

حدود الخصوصية ومتطلبات التكامل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

يوم: 2022/11/29

أسس التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية

الدكتور: صالح بن لفقي

تخصص: فلسفة العلوم

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة مولود معمري - تيزي وزو

البريد الإلكتروني: s.benlefki@yahoo.fr

رقم الهاتف: 0675303504

الملخص:

تحقيق التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية ضرورة حضارية تتطلبها اللحظة التاريخية الراهنة للمجتمعات الإسلامية التي تشهد انفصاما بين المجالات المعرفية المختلفة، مما انعكس بالسلب على الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي، إلا أن الإشكالية المطروحة في الفكر الإسلامي المعاصر تتمثل في تحديد الكيفية التي يمكن أن يتحقق بها التكامل بين المجالات المعرفية المختلفة، وخاصة بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية التي تجمع بينها قواسم مشتركة، سواء في المجال الخاضع للدراسة، أو في الغايات المراد تحقيقها.

وبناء على ما سبق، تبحث المداخلة " أسس التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية" عن المنطلقات المعرفية التي يمكن أن يتحقق بها التكامل بين المجالين المعرفيين: العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية. وتندرج ضمن المحور الرابع من محاور الملتقى: تحديد واستقراء المتطلبات الضرورية للتكامل المعرفي بين العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية.

ولتحقيق الأهداف المسطرة، تتمحور المداخلة حول العناصر الآتية:

1-مدخل لا بد منه: الحضارات والعلوم.

2-العلوم الإسلامية والدراسات الميدانية.

3-العلوم الإنسانية وبصائر الوحي.

4-منطلقات التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية.

مقدمة: تحقيق التناسق بين العناصر المشكلة لبنية ما ضروري لسلامة هذه البنية وصلاحياتها للاستعمال.

والحضارات (وكذا الثقافات) لا تشذ عن هذه القاعدة، فسلامتها واستمراريتها وصمودها أمام التحديات المختلفة يتطلب تناسقا بين كل العناصر الجوهرية المشكلة لحقيقتها، وتفاعلا بينها لتدعيم أركان هذه الحضارة وترسيخها.

ومن هذا المنطلق يأتي وجوب تحقيق التكامل بين العلوم المختلفة؛ فالمعرفة العلمية هي الرابطة التي تشد الإنسان (باني الحضارة وحاميها ومطورها) إلى التربة الثقافية التي تستمد منها حضارته غذاءها ودواءها، وتحدد منطلقاتها وغاياتها.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية تئن تحت وطأة الضعف والهوان في القرون الأخيرة، فإن الروح الحضارية الإسلامية لا تزال سارية في النفوس، ولا أدل على ذلك من الجهود التي بذلها الكثير من العلماء في العالم الإسلامي للنهوض بالأمة ومعالجة ما حل بها من ضعف وهوان، ومن هؤلاء العلماء: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، محمد بن عبد الوهاب، رشيد رضا، عبد الحميد بن باديس، مالك بن نبي، مدرسة إسلامية المعرفة... .

ولا شك أن موضوع هذه الندوة المباركة (العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية والاجتماعية حدود الخصوصية ومتطلبات التكامل) يندرج في إطار الجهود التي تبذل لإزالة الانقسام بين المعارف المختلفة لتكون في خدمة الحضارة الإسلامية المتميزة بالخصوصية والتفرد عن باقي الحضارات.

وهذه المداخلة (أسس التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية) تبحث في كيفية تحقيق التكامل بين هذه العلوم، كاشفة عن المنطلقات المعرفية التي يمكن تحقيق التكامل على أساسها، من خلال النظر في مفهوم العلوم الإسلامية ومفهوم العلوم الإنسانية، واستنباط ما يمكن أن يكون مجالا مشتركا بين المفهومين، والمنطلقات التي يمكن أن تجمع بينهما في إطار حضاري واحد له رؤيته الكونية الخاصة.

ولتحقيق الأهداف المسطرة، تتمحور المداخلة حول العناصر الآتية:

1-مدخل لا بد منه: الحضارات والعلوم.

2-العلوم الإسلامية والدراسات الميدانية.

3-العلوم الإنسانية وبصائر الوحي.

4-منطلقات التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية.

1-مدخل لا بد منه:

لماذا تختلف مواضيع العلوم من أمة حضارية إلى أخرى؛ فتجد هذه تهتم بظواهر معينة، بينما الأخرى تهتم بغيرها من الظواهر، وتختلف كذلك الغايات المرجوة من هذه العلوم، فمن حضارة تستهدف القوة إلى أخرى تعمل على تيسير سبل الحياة، وأخرى تجمع بين الغايتين في إطار أخلاقي؟

لا شك أن العلوم هي نتاج الروح الحضارية السائدة في الأمم التي أفرزتها، وأهم عنصر في هذه الروح: الرؤية الكونية السائدة (أي التصور السائد لله تعالى والحياة والإنسان والكون)، وبالمصطلح الإسلامي: العقيدة المعتنقة؛ فالإنسان لا يمكنه أن يتصرف أو يفسر أو يفهم الأشياء خارج ما يتناسب مع ما يتصوره، وفي هذا يقول سيد

حسين نصر: "أية دراسة أساسية لعلوم كونيّات حضارة ما يجب أن تأخذ بعين الاعتبار العلاقة الحميمة بين التنزيل [الجوهر الكيفي للحضارة] والرموز المستخدمة في دراسة الطبيعة، وعلى هذا النحو فقط يستطيع المرء فهم سبب اختيار كل حضارة لمجموعة خاصة من الظواهر، من بين عدد كبير من ظواهر الطبيعة كموضوع للدراسة، وسبب تطور مجموعة من العلوم الكونية واستبعاد أخرى" (نصر 1961، ص: 14)، ويؤكد هذا عدد من المفكرين، فطه جابر العلواني، يقول: "والعلوم التقنية لا يمكن فصلها عن فلسفة منتجها، وثقافته ومنهجه في استخدامها، لأن الإنسان بثقافته وخلفيته هو أداة التحليل ووسيلته، وهو نفسه محل الدراسة والتحليل أيضا" (العلواني، 1994، ص: 11)، أما أبو سليمان فيقارن بين العلم في الحضارة الغربية والعلم في الحضارة الإسلامية، فيرى أنه في هذه الأخيرة كان العلم أداة للإعمار والإصلاح، وبنى مؤسسات صحية وصناعية، ولم يهتم بصناعة الأسلحة وتطورها، أما في الحضارة الغربية الحديثة فقد كان العلم أداة لاكتشاف وسائل الدمار الشامل، وصنع الأسلحة الفتاكة (أبو سليمان 1992، ص: 206).

وعلى أساس ما سبق، نجد علماء الإسلام يستهدفون بنشاطهم الفكري والعقلي والعلمي بيان الحق للعمل بمقتضياته، لا المعرفة لأجل المعرفة، ولا لأجل الاستكثار من الملذات.

أما في الحضارة الغربية، فالهدف يتمثل في السيطرة على الطبيعة، والتحكم في الظواهر لأجل تلبية الحاجات المادية، وتحقيق الرفاهية، والترف المادي، ولذلك "فالعلاقات القائمة بين الفكر العلمي وتطبيقه، بين عالم الأشياء العلمي وعالم الإنشاء والسلوك الدارجين وثيقة جدا، وتخضع لمنطق واحد، وعقلانية واحدة، منطق السيطرة وعقلانيتها" (ماركوز 2004، ص: 187)، ولقد استبعدت الغايات الأخلاقية طلبا للفاعلية القصوى للمنهج العلمي والعلم في تحقيق السيطرة، وهذا التفريق يتناسب مع منطق الحداثة حيث "تتضمن التفريق المتزايد بين مختلف القطاعات، وتمنع أن ينظم أي قطاع من الخارج" (تورين 1998، ص: 15).

والفصل بين العلم والأخلاق جعل العقل أداتيا، يعمل فقط على تحقيق ما يرغب الإنسان الوصول إليه من إنجازات، دون أن يُقيم هذه الإنجازات التي يودّ الحصول عليها تقييما أخلاقيا بالنظر في آثارها ونتائجها، وانعكاساتها على الإنسان والوسط البيئي الذي يعيش فيه.

وعلى أساس ما سبق، فالقول بأن العلم محايد وإنساني لا يأخذ بعين الاعتبار أثر البيئة الحضارية التي نبت فيها، وصبغته بصبغتها الخاصة، يقول عبد الوهاب المسيري: "انفصل العلم عن أي غايات إنسانية أو أخلاقية، وترجم هذا نفسه إلى ما يسمى العلم المحايد المنجرد من القيمة، ولكن هناك دائما من يقرر القيمة ونوعية التجارب التي ستجرى" (المسيري 2001، ص: 31).

وتصور العلم الحديث على أنه حيادي يعكس روح الحضارة الغربية التي نبت فيها، والتي تعتبر الإنسان المرجعية التي تقرر الغايات النهائية التي توجه إليها الأنشطة الإنسانية - بما فيها النشاط العلمي -، ويستبعد المرجعية الدينية باعتبارها عائقا أمام التقدم العلمي، وتحول دون تحقيق الأهداف التي سطرها الإنسان لنفسه والمتمثلة في تحقيق أكبر قدر ممكن من المنافع المادية.

وما تقدم يكشف لنا عن الفلسفة السائدة التي نبتت في ظلها العلوم الإنسانية، والتي استهدفت على يد مؤسسيها محاكاة العلوم الطبيعية في المنهج وفي الغاية.

وإدراك هذه الفلسفة مهم لبيان إمكانية إبداع علوم إنسانية متوافقة مع روح الحضارة الإسلامية (والحضارات تبعد علومها ولا تنقل إلا ما ما يتوافق مع روحها)، ومستفيدة من العناصر التي تشتمل عليها الدراسات الغربية في هذا المجال، والتي لا تتعارض مع الثوابت الإسلامية، وبذلك تكون هي والعلوم الإسلامية أداة لخدمة نفس الغاية وهي تمكين الناس من عبادة الله تعالى.

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن تحقيق التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية؟

2- العلوم الإسلامية والدراسات الميدانية:

يُراد بالعلوم الإسلامية ما استفيد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتتمحور حول العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه، وهي التي يسميها ابن خلدون بالعلوم النقليية، وأصلها - كما يقول -: "الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة، ويذكر أصنافها: علم التفسير، علم القراءات، علوم الحديث، أصول الفقه، الفقه، العقائد، علم الكلام، العلوم اللسانية...، وهي كلها مختصة بالأمة الإسلامية، وتتميز عن العلوم الحكمية الفلسفية (العقلية) باستنادها إلى الخبر الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إحقاق الفروع بالأصول (ابن خلدون 2004، ص: 456).

أما العلوم الحكمية الفلسفية، فهي: "التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها، ووجوه تعليمها، حتى يقفه نظره وبحته على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر" (ابن خلدون، 456).

فهل العلوم الإنسانية من الصنف الأول أم الثاني؟

تعرف العلوم الإنسانية بأنها: "تلك التي تدرك العالم على أنه ينطوي على معان، وتتكون معرفتها بتلك المعاني، وهذا يعني أن علوم الإنسان تحاول النفاذ إلى الأفكار والمشاعر والمعاني والمقاصد التي تقف وراء الواقع أو التعبيرات المختلفة وإدراكها إدراكا كيفيا" (محمد، ص: 16)، وعلى هذا الأساس فكل دراسة تتناول أحوال الإنسان إن منفردا أو مجتمعا مع غيره فهي علوم إنسانية (لا شأن لهذه الدراسة بمشكلة المصطلح: أهي علوم إنسانية أم اجتماعية أم علوم إنسانية واجتماعية).

وهذا المفهوم يكشف عن نقطتين:

الأولى: موضوع العلوم الإنسانية هو الإنسان: سلوكه -علاقاته-نظمه الحياتية السياسية والاجتماعية والاقتصادية -دوافعه -غرائزه...، وهي في ذلك تهتم بالجوانب المعنوية لا المادية، فموضوع هذه الأخيرة: العلوم الطبيعية.

الثانية: أنها تهتم بما هو واقع لأجل وصفه، وفهمه وتفسيره، بحثا عن القوانين الحاكمة للحياة الإنسانية في تجلياتها المختلفة.

فهل ما تدرسه العلوم الإنسانية غريب عن المعاني التي ورد بها الوحي وعن العلوم النقلية؟
-لقد أشار القرآن الكريم إلى ثبات السنن الإلهية في الأنفس، إذ نجد في سورة الحشر أمر بالاعتبار: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ} (الحشر: 02)، والاعتبار: "النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها" (ابن عاشور 1984، ج 28، ص:70)

{وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (الفتح: 22-23)، و"السنة: الطريقة والعادة"، وسنة الله تعالى ثابتة "راسخة فيما مضى... متحققة في المستقبل" (ابن عاشور، ج 26، ص:181)

والآيات في هذا المعنى عديدة، والقصص القرآني يؤكد أن القوانين الاجتماعية سارية على كل البشر، فنفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج، ويؤكد أن الإنسان يمتلك الحرية اللازمة للاختيار.

-يتناول علم الفقه الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع، فهل يمكن الحكم على السلوك الإنساني دون دراسة كافية للأسباب التي أدت إليه، والنتائج التي يمكن أن تترتب عليه؟ وما ينبغي ملاحظته في هذا الجانب أن الوحي لا يكتفي بذكر الأحكام، وإنما يذكر البدائل لما يحرمه، ويقدم الحلول للمشكلات الإنسانية المختلفة، فإصدار الأحكام مجردة لا تثمر إقناعاً ولا التزاماً، ولذلك فالحاجة ماسة لدراسات ميدانية تصف الواقع كما هو، وتبحث عن الأسباب وراء الظواهر المختلفة، بغرض وصف الحلول الناجعة؛ ويمكن إيراد أمثلة عديدة: مشكلة التسرب المدرسي، مشكلة المخدرات، الانحرافات الأخلاقية، العلاقة بين أرباب العمل والعمال، الأمراض النفسية، مشكلة الكسل والتعاس عن أداء الواجبات، مشكلة وسائط التواصل الاجتماعي....، فهل يكفي في هذه الحالات أن يقال هذا حلال وهذا حرام، أم أن الواجب يقتضي البحث عن أسباب هذه المشكلات لمعالجتها، وبالتالي تحسين النتائج؟ ولا شك أن القاعدة: "الحكم على الشيء فرع عن تصوره" شائعة في الفكر الإسلامي.

ومن هذه المنطلقات تبرز الحاجة إلى العلوم الإنسانية باعتبارها الأدوات التي تهتم بكشف الواقع الإنساني ووصفه وتحليله وتحديد أسباب الظواهر، وتبحث عن أفضل النظم المناسبة للحياة الإنسانية والمتوافقة مع أحدث ما عرفته البشرية من معارف وتقنيات. إلا أن المشكلة التي تطرح تتمثل في حصر العلوم الإسلامية في عدد من العلوم، واهتمام المؤسسات العلمية "الإسلامية" بهذه العلوم دون غيرها، مما يطرح مشكلة التمايز بينها وبين غيرها من العلوم، رغم الاعتقاد بأن الإسلام نظام حياة صالح لكل زمان ومكان، ويتصف بالشمولية، ويعمل على إصلاح الحياة الإنسانية.

ولا شك أن لهذا الانفصام بين العلوم الإسلامية وغيرها أثره السيئ على الحياة العلمية والمعرفية والثقافية لعموم المسلمين، فبالإضافة إلى التسبب في عجز الفقهاء عن معالجة الواقع، يؤدي إلى حصر المثقف الديني في مجال ضيق (المسجد-المناسبات الدينية-الجنائز) واعتباره هو والقسيس سواء في الوظيفة، والأسوأ في كل هذا اختزال

الإسلام في الحياة الشخصية. وهذا ما يتنافى مع طبيعة الإسلام الذي يهدف إلى تنوير الحياة الإنسانية في بعديها الفردي والاجتماعي، وتطهير النفوس والسلوك والعلاقات الاجتماعية مما يتنافى ومصلحة الإنسان. ألا يدعو ما سبق إلى إدراج كل العلوم الخادمة للحياة الصالحة المتوافقة مع الثوابت الإسلامية ضمن العلوم الإسلامية؟

3- العلوم الإنسانية وبصائر الوحي:

ارتبط ظهور العلوم الإنسانية كمصطلح دال على الدراسات التي تتخذ من الإنسان موضوعاً للدراسة بالوضعية التي أسس لها أوغست كونت (1798-1857)، و"الوضعية نظام عام مهيم على التصورات وأساليب التفكير، يقوم على المحسوس، ويقضي كل عناصر التفكير الميتافيزيقي" (أمزيان 2000، ص:34)، وهذا النظام مستوحى من النموذج العلمي الفيزيائي.

وأكد العلماء المتخصصون (علماء الاجتماع - علماء النفس....) أن الدراسات في مجال الإنسانيات لا تكنسب صفة العلمية إلا إذا طبقت المنهج الوضعي، وذلك باعتماد الحواس أداة وحيدة للمعرفة، واستبعاد التأمل والبعد الغيبي الميتافيزيقي؛ ومن هؤلاء العلماء إميل دور كايم (1858-1917) الذي كان له إسهام بارز في علم الاجتماع، فالعلم عنده يجب أن يخضع للمنهج الوضعي الذي تخضع له كل العلوم الأخرى، وقد أقام رأيه على ثلاث مسلمات:

- 1- وحدة الطبيعة: أي أن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة.
 - 2- اعتبار الظواهر الاجتماعية جزء من عالم الطبيعة الموضوعي.
 - 3- الاعتقاد بأن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ومبادئ طبيعية، وتصلح للدراسة وفق المنهج العلمي القائم على الاستقراء والتجريب (ملكاوي 2015، ص:168).
- والمسلمة الثانية والثالثة نتيجة منطقية للأولى، فإذا كان الإنسان كائن مادي فمن الطبيعي أن يسري عليه ما يسري على الأشياء المادية، ويصلح لدراسته المنهج المعتمد في دراسة عناصر الطبيعة المادية، وهو المنهج التجريبي. ولما كان التصور المادي للإنسان هو السائد في الحضارة الغربية، فقد توجه علماء الإنسانيات نحو المنهج العلمي المتبع في الفيزياء لدراسة الظواهر الطبيعية:
- فهو يشبه الإنسان بالآلة، ويشبه أجزاء المجتمع البشري بأجزاء الآلة، ويعتبر غريزة الخوف هي المحرك للسلوك الإنساني. وفرويد يعتبر غريزة الجنس هي القوة الدافعة، وواطسون يؤكد أن جسم الإنسان هو الحقيقة الإنسانية الوحيدة (ستانسو وأغروس 1989، ص:79-83).
- ولما تغير المنهج في العلوم الطبيعية (في القرن العشرين) من المنهج الاستقرائي إلى المنهج الفرضي الاستنباطي، واعتبر العقل هو الأساس في المعرفة العلمية، غيرت العلوم الإنسانية رؤيتها، فانتقدت المنهج الوضعي، ونظرت للإنسان نظرة مغايرة، ودعت لدراسة الإنسان "بوصفه إنساناً لا مجرد حيوان أو آلة، فالإنسان [في نظرها] قوة واعية، وهذه هي نقطة الانطلاق" (ستانسو وأغروس، ص:86).

ويُعتبر (في نظر المؤلفين - ستانيسيو وأغروس-) علم النفس الإنساني نموذج للعلوم الإنسانية التي نشأت على أساس الرؤية الجديدة التي تستبعد أية محاكاة للإنسان بغير الإنساني، وترى أن "الإنسان يملك القدرة على التصرف من أجل تحقيق أهداف ينتقيها هو نفسه، غير أن الأهداف تستند إلى قيم، ولذلك فإن علم النفس في النظرة الجديدة يشمل دراسة القيم" (ستانيسيو وأغروس، ص: 86-88).

وسلكت المدرسة النقدية لفرانكفورت نفس منهج علم النفس الإنساني، فانتقدت المنهج الوضعي والمنطلقات المعرفية التي يقف عليها، ومن ذلك: الحتمية-عقلانية السلوك- تشيؤ المنهج ...، وأحييت النقاش حول الإشكاليات الآتية:

- هل السلوك الإنساني عقلائي (أي يتصرف وفق ما يحقق له المنفعة)؟ أم أن الناس يتصرفون عكس مصالحهم في الشدائد؟

- هل الإنسان دمية يحركها البناء الاجتماعي؟ أم أنه يتصرف بوعي وبارادته؟

- هل يمكن التنبؤ بالظواهر الاجتماعية؟ أم يمكن وصفها فقط؟

- إلى أي مدى يصلح المنهج العلمي في العلوم الإنسانية؟

- هل الموضوع هو الذي يفرض المنهج؟ أم أن المنهج شيء أولي؟ (تيودور أدورنو، ب ت ن)

ويلاحظ في النظرتين القديمة والجديدة اتخاذها العلم الفيزيائي مصدرا أساسيا لتحديد المنطلقات المعرفية، وبناء التصورات، وسن المناهج للوصول إلى المعرفة، فهل يصلح العلم ليكون مرجعا لدراسة كل الموجودات ومنها الكائن الإنساني؟

والفرق بين النظرتين تتمثل في حصر الأولى للحقيقة الإنسانية في المادة، وإضافة الثانية للعقل كعنصر جوهري مشكل للحقيقة الإنسانية. والنظرتان لهما طابع ميتافيزيقي، فالعلم الطبيعي يتناول العلاقات بين الظواهر المادية المختلفة، وتركيبية المواد، ولا شأن له بتحديد طبيعة الأشياء وكنه الوجود. وتتشركان في اتخاذ المعرفة الإنسانية المتقدمة مرجعا، وبلغة دينية: استبدال المعرفة الإنسانية ببصائر الوحي، والإنسان بالله تعالى، وعلماء الطبيعة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، وإذا كان لهذا ظروفه ومبرراته التاريخية والمعرفية في الغرب، فإنه في العالم الإسلامي غير مبرر.

ومما استشكل في العلوم الإنسانية وظيفة العالم الاجتماعي، فهل دوره يتوقف عند فهم الظاهرة وتفسيرها؟ وهل يمكن للباحث في هذه العلوم البحث في القضايا الاجتماعية بمنأى عن فلسفته في الحياة والقيم التي يؤمن بها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تخلو الدراسات الإنسانية من إصدار الأحكام بالصحة أو بالخطأ على سلوكات الإنسان أفرادا وجماعات؟

وإذا نظرنا إلى الظواهر التي تدرسها العلوم الإنسانية، نجد أنها صنفتين:

- ظواهر تخضع للمشاهدة الحسية: مثل مبادئ التنظيم والإدارة، العلاقات الصناعية، السلوك الخارجي للإنسان

-وظواهر لا يمكن إخضاعها للمشاهدة الحسية: مثل نشأة الأديان، طبيعة الأخلاق، نشأة مختلف النظم كالأسرة والزواج والشرائع... (أمزيان، ص: 64-65).

وهذه القضايا (البعد الميتافيزيقي للعلوم الإنسانية -وظيفتها - الظواهر التي لا يمكن مشاهدتها) منصوص عليها في الوحي (القرآن الكريم والسنة الشريفة) بما يتناسب ومصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة، فلماذا لا يُتخذ الوحي مرجعا لتعريف الإنسان، ومصدرا للحكم على السلوك الإنساني وبناء النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية؟

ومن هذا المنطلق، تعتبر العلوم الإنسانية علوما إسلامية بامتياز، فمرجعيتها واحدة والوظيفة مشتركة، وهي إصلاح السلوك الإنساني ليكون متوافقا مع الغاية التي خلق لأجلها الإنسان وهي عبادة الله تعالى.

منطلقات التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية:

مما سبق عرضه في المحورين السابقين يمكن أن نحدد منطلقات التكامل بين المجالين المعرفيين:

أ-المنطلق الأول: أسلمة مفهوم العلم:

لقد اختزل مفهوم العلم في الحضارة الغربية الحديثة في الدراسات التي تتخذ من المواد الطبيعية موضوعا لها ومن المنهج التجريبي طريقا للوصول إلى المعرفة، وهو مفهوم لم يكن معروفا في الحضارات السابقة، ومنها الحضارة الإسلامية، ويتنافى مع مبادئ الثقافة الإسلامية وروحها، "الثقافة الإسلامية تدخل في حد العلم المعرفة التي مصدرها الوحي، والتي مصدرها العقل والحس، أو الذوق والخيال، أو النقل والسمع" (المبارك 1987، ص:15)، فكل معرفة مؤسسة على أدلة صحيحة فهي علم، سواء كانت هذه الأدلة من الوحي، أو من الحس، أو من التجارب الإنسانية، أو من غيرها.

والاختلاف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في مفهوم العلم مرتبط بالمسار التاريخي لكل حضارة، وبالعوامل المؤثرة في الثقافة الغربية والإسلامية.

ففي الثقافة الغربية فقد عموم الناس الثقة بالنصوص الدينية، لتعارضها مع مكتشفات العلم، وتولد عن فقد الثقة الاستغناء عن المعرفة الواردة في هذه النصوص، والاستعاضة عنها بما يصل إليه العلماء، وقد ساهم في ذلك إحياء التراث اليوناني القديم من آداب وكتابات كلاسيكية، والدور السلبي للكنيسة مع العلماء إذ حاولت فرض فهمها وتفسيرها للنصوص الدينية على الجميع، أما في إطار الثقافة الإسلامية، فالنصوص المؤسسة لهذه الثقافة (القرآن الكريم والسنة النبوية) تحث على العلم بمفهومه الشامل، فقد ورد لفظ "علم" ومشتقاته في القرآن الكريم نحو من 850 مرة، منها (400) مرة دالا على العلم الإنساني (عبد الباقي، ص: 596-611)، وباستقراء الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ العلم، يلاحظ أنه يستعمل للدلالة على علم الله عز وجل، كما في قوله تعالى:

{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (النور: 35)

وللدلالة على العلم الإنساني المتعلق بالقضايا العقديّة كما في قوله تعالى:

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (آل عمران: 18).

وللدلالة على العلم الإنساني المتعلق بالكون والاجتماع الإنساني، كما في قوله تعالى:
{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ غَفُورٌ } (فاطر: 27-28).

وكان العديد من العلماء في تاريخ الثقافة الإسلامية يجمعون بين العلوم المختلفة: الطب، الفقه، الفلك،
التفسير... الخ، ولم يظهر أي تعارض بين ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية وبين مكتشفات العلم الحديث، بل
جاء العلم بما يوافق ما ورد في القرآن الكريم، وبثبت أن مصدره لا يمكن أن يكون بشرا، بل هو الله عز وجل.
وعلى هذا الأساس يمكن استخدام مناهج متعددة لدراسة الظواهر الإنسانية، اختيارا للإشكاليات وتحليلا
للمعطيات وتقديما للبرامج والحلول. وذلك في إطار ما يتوافق مع الحقيقة الإنسانية.

ولا شك أن المنهج الاستقرائي هو واحد من المناهج التي يمكن استخدامها في الدراسات الإنسانية، وقد أشار
إليه القرآن الكريم في العديد من الآيات، من ذلك: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا } (محمد: 10)، ولكنه ليس المنهج الوحيد.

ب- المنطلق الثاني: أسلمة مفهوم الإنسان: ينص القرآن الكريم على أن الإنسان مادة وروح، يقول الله
تعالى: { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } (ص: 71-72)،
ويؤكد في آيات أخرى أنه كائن ديني، ففي سورة الأعراف يقول الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ
ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ } (الأعراف: 172).

وهذا المفهوم الذي يتجاوز المفهوم الضيق المختزل للإنسان في البعد المادي، من شأنه أن يساهم في تقديم
دراسات تعكس الواقع الإنساني، وتقدم تفسيرات ودلالات لسلوك الإنسان تتوافق وحقيقته، إذ أن جانبا كبيرا من
الحياة الإنسانية لا يمكن تفسيرها بلغة المادة، مثل: الإيثار - التضحية بالنفس والمال من أجل الآخرين - قصور
الإشباع المادي عن إسعاد الإنسان - زيادة الجريمة بزيادة الثراء - الأمراض النفسية - نشأة الأسرة والمجتمعات....
وإذا كان المنهج الاستقرائي فعال في بيان ما هو ظاهر من الحياة الإنسانية، فإن كشف الخفي من المعاني التي
دفعت هذه السلوكيات للظهور وفهم دلالتها يتطلب طرقا أخرى تتناسب مع طبيعة هذه المعاني.

مثال ذلك: يقول الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ
سُوءُ الْعَادَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ } (النمل: 4-5)

ألا تفسر لنا هذه الآية (التي تعطي للإيمان باليوم الآخر دورا محوريا في صلاح سلوك الإنسان وفي سعادته في
الدنيا والآخرة) العديد من السلوكيات المنحرفة والمقلقة للوجود الإنساني، كالانتشار الواسع لاستهلاك

المخدرات...؟ وهل تكفي التنمية الاقتصادية والثراء في كبح جماح الانحرافات؟ وهل الظواهر الإنسانية الظاهرة فقط هي التي تستحق الدراسة أم أن الجوانب المعنوية كذلك تستحق الاهتمام والبحث؟

ج-توسيع مفهوم الفقه ليشمل الدراسات الميدانية المساعدة على فهم الواقع، من أجل التنزيل الصحيح للأحكام، وبناء حلول تعالج المشكلات الحقيقية لا المتوهمة، مثل: مشكلة الربا والبنوك، فكيف يمكن أن نصل إلى أسلمتها دون الوقوع في الإضرار بالاقتصاد؟ ومشكلة الطلاق: ما هي الأسباب الحقيقية لظاهرة الطلاق المستفحلة في المجتمع؟.... والبحث عن الأسباب سيساعد الفقهاء على استنباط الأحكام المناسبة، ويساعد المفسرين على فهم سنن الله تعالى في الأنفس، ويمكن علماء الكلام من مواجهة التحديات المعاصرة والشبهات التي تواجه العقيدة الإسلامية

د-جعل عبادة الله تعالى هي الغاية: فمن الثوابت العقدية أن عبادة الله تعالى هي الغاية التي خلق لأجلها الإنسان، ولذلك يجب أن تُوجه كل النشاطات الإنسانية -بما فيها النشاط العلمي- لأجل تحقيق هذه الغاية، والعلوم الإنسانية والإسلامية والطبيعية لا تكون إسلامية إلا إذا توجه الباحثون فيها إلى خدمة هذه الغاية، ومساعدة الناس على تجسيدها في أنفسهم وأسرهم ومجتمعاتهم، ولا يكون ذلك إلا " بتوجيه الجهود إلى اكتشاف العناصر الإيجابية قصد تثبيتها، وإلى اكتشاف العناصر السلبية داخل المجتمع قصد اقتلاعها" (أمزيان، ص:367).

فهذه بعض المنطلقات التي يمكن أن تؤسس للتكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية، وبالتالي القضاء على ازدواجية التعليم، وانفصام المعرفة في كثير من التخصصات عن الثقافة الإسلامية، وهي التي أسست وطرقت المعرفة الإنسانية. والله تعالى أعلم.

خاتمة:

ما يمكن استخلاصه من هذا البحث عن أسس التكامل بين العلوم الإنسانية والإسلامية، يتمثل في الآتي:
-العلوم الموصوفة بالإسلامية ينبغي أن تشمل على كل المعارف الخادمة للغاية التي خلق لها الإنسان، وهي عبادة الله تعالى، وبذلك فالعلوم الإنسانية هي جزء منها لتكاملها مع العلوم النقلية، إذ هي كالأداة لها.
-العلوم الإنسانية هي العلوم التي موضوعها الإنسان، ودراسة الإنسان يمكن أن يكون بطرق أخرى غير الطرق التي أبدعتها الحضارة الغربية الحديثة المتفق على أنها حضارة مادية تختزل الوجود كله -بما فيه الوجود الإنساني- في المادة.

-الحضارات تبعد علومها ولا تنقل إلا ما يتوافق مع ثقافتها وقيمها وأسلوب حياتها، ولذلك فالخطوة الأولى للتكامل تتمثل في إبداع جهاز مفاهيمي مستمد من الرؤية الكونية الإسلامية، ومتوافق مع طبائع الأشياء، وخدام للغايات الإسلامية.

المراجع:

-القرآن الكريم.

- ابن خلدون، عبد الرحمان (2004)، المقدمة، دار الفكر، دمشق، ط1.
- ابن عاشور، الطاهر (1984)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، بلا رقم ط.
- أبو سليمان، عبد الحميد (1992)، أزمة العقل المسلم، دار الهدى، عين مليلة، ط2
- أدورنو، تيودور(ب س ن)، محاضرات في علم الاجتماع، ترجمة: جورج كتورة، مركز الإنماء العربي، بيروت.
- أمزيان، محمد محمد (2000)، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط4.
- تورين، آلان (1998)، نقد الحداثة: الحداثة المظفرة(القسم الأول)، ترجمة: صباح الجهيم، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، بلا طبعة.
- عبد الباقي، محمد فؤاد (ب ت ن)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (مادة علم)، دار الحديث، القاهرة، ط3.
- ستانسو جورج وأغروس روبرت (1989)، العلم في منظوره الجديد، ترجمة: كمال خلالي، سلسلة عالم المعرفة 134، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- العلواني، طه جابر (1994)، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، ورقة عمل (سلسلة إسلامية المعرفة:10)، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2.
- ماركوز هاربارت (2004)، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ط4.
- المبارك، محمد (1987)، الإسلام والتفكير العلمي، دار الفكر، بيروت، ط1.
- محمد، علي عبد المعطي (ب ت ن)، البحث عن منهج للعلوم الإنسانية. في: مجموعة من المؤلفين، قضايا العلوم الإنسانية: إشكالية المنهج، إعداد: يوسف زيدان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، بلا رقم الطبعة.
- المسيري، عبد الوهاب (2001)، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، ط3.
- ملكاوي، فتحي حسن (2015)، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن، عمان، ط2.
- نصر، سيد حسين(1961)، مقدمة إلى العقائد الكونية، ترجمة: سيف الدين القصير، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1.